

أهمية دراسة التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

« أنشودة الزمن خلدت في ذاكرة الناس » هذا ما ألفاه شاعر في التاريخ . وما يجده الشاعر في قراءة التاريخ لا يختلف كثيراً عما يجده الفيلسوف أو المؤرخ . فالفيلسوف يجد في التاريخ طرائق متعددة للحياة الإنسانية ، ويسمع فيه صوتاً خالداً يردد قوانين الحق وأصداء الباطل ، ويدرس فيه الفلسفة دراسة الواقع . وأما المؤرخ فيجد ممتعته في الوصول إلى الحقيقة ، وذلك بدراسة الآثار والوثائق التي خلفتها الإنسانية في مناحيها المادية والروحية . ويتساءل المؤرخون فيما بينهم عن موضوع علم التاريخ . هل التاريخ سيرة الملوك والأمراء ، أم هو سيرة الشخصيات الكبيرة والأبطال الذين قادوا الأمم وغيروا مجرى حياة الشعوب ؟ هل التاريخ قصة حياة طبقة دون سواها ؟ هل التاريخ دراسة للناحية السياسية فحسب ، أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والمقالية والفنية للحياة الإنسانية ؟ ولعل الرأي الذي يقول بأن التاريخ يبحث في حياة الإنسان في الماضي من كل نواحيها وفي تطورها ونموها أقرب إلى الحقيقة . ولكننا نرجع فنجد دراسة للحياة الإنسانية بالمدى التاريخي ، وهي المدة التي وجدنا لها آثاراً ومخلفات نستطيع الاعتماد عليها والوثوق بها . فالتاريخ يعرض أمامنا ثمرات العقل الإنساني وباطنة الإنسانية من أدب وعلم وقوة ودين ، يرينا ما صرته به الدول والشعوب والطبقات والأفراد من عن ومصاعب وما سمت إليه من مجد وعظمة : هو يوضح لنا التطور السياسي والاجتماعي والفني .

شعر الناس منذ القدم بما للتاريخ من قيمة ، فعنوا بدراسته وسارعوا إلى تدوين أخبار الإنسانية على صفحات الذاكرة ، ثم على مبانهم ومنشآتهم ، ثم سجلوها في كتبهم ، وهم يحسون بضرورة صيانة تراث الآباء والأجداد . على أن قيمة هذه الأخبار تتباين في أنظارهم بتباين الزمان والمكان ، فحينما كان التاريخ قصصاً يختار الرواة من حوادثه ما يبهروهم ويشير إعجاب الجمهور كانت قيمته في التسلية وكسب الرزق . وحينما تقلبت فكرة السياسة أو الأخلاق ، أو الدين أو الاقتصاد أصبح التاريخ يخدم غرضاً سياسياً ، دينياً

أو اجتماعياً . ثم لما اهتم المؤرخون بتنظيم حقائقه وترتيب وقائمه ، وتقدها ، كانت قيمة التاريخ في ذاته ، في السعي إلى الوصول إلى الحقيقة ولننظر إلى أهمية التاريخ في تربية الدارسين وتنقيف عقولهم .

ما قيمة التاريخ في ذلك النوع من التربية الذي يرمي إلى إعداد الأفراد للقيام بحرفة بنجاح وكفاية ؟ رى التعليم في القديم إلى غرض مهني ، فكان مهري من توافروا على معرفة التاريخ كسب العيش . فنذ أزمته سحيفة من عهد هوميروس ، وجد قوم أنهمكوا في دراسة القصص القومي وما يحويه من سير الأبطال ، وساروا به خلال الديار اليونانية ينشدونه أمام الناس ويتقبلون ما يمنحونهم من هبات . وفي التاريخ الإسلامي كانت طائفة من الناس تعمل على حفظ أخبار العرب وأيامها وآدابها للتقرب من الخلفاء ونيل عطائهم . ولم تكن طريقة الدراسة تعتمد على الأخذ من أفواه الرواة فحسب ، بل كثيراً ما كانت تلجأ هذه الطائفة إلى الرحلة إلى الأقاليم التي يراد دراستها والوقوف على عجائبها وطبقات أهلها . ومثل هذه الطائفة كان يطوف في أوروبا في العصور الوسطى عرف المسلمون للتاريخ فوائد أخلاقية « دنيوية وأخروية »

فكان عند الدول الإسلامية مادة حرفية تعد لمهنة الكتابة والإنشاء . وفي أوروبا في العصور الحديثة كان التاريخ يدرس لأولاد النبلاء والأمراء كوسيلة من وسائل تدريبهم على ممارسة أمور الحكم . وهو الآن يدرس في بعض المعاهد العليا والجامعات لإعداد مدرسي التاريخ والخبراء السياسيين . أما في المدارس الثانوية والابتدائية فتتطلب الفكرة الثقافية التي ترمي إلى تكوين الدارس عقلاً وروحاً وإعداده لتذوق الفن والجمال

مركز التاريخ مهم بين العلوم الثقافية ، فالاهتمام به إنما هو اهتمام بتركة الإنسان وآثار الجهد الإنساني . قد يشك بعض الناس في قيمة تثقيف الطلبة بمعلومات عن أشخاص أو حضارات أصبحت الآن طلي الفناء كما يحاولون . هؤلاء الأشخاص وهذه الحضارات لم تنف آثارها فزالتمقيمة يبننا مؤثرة فينا ماهمة لنا ؛ وما قيمة المعلومات الأخرى للإنسان إذا لم يعرف نفسه وماضي حياته وتفكيره في أطواره المختلفة ؟ فدراسة الإنسان يبنى أن يكون محور كل دراسة ومركز كل بحث

أما مراكز التاريخ في التربية الخلفية الاجتماعية فلا يقل أهمية . يرمي ذلك النوع من التربية إلى تكوين الأخلاق الشخصية . ولقد ولد الإنسان في مجتمع يمد أفراده للحياة فيه

وفق عادته ونظمه ومثله العليا . ولا ريب في أن التاريخ يكاد يكون من أزم العلوم لهذا النوع من التربية ، لأن التاريخ يدرس ماضي الإنسانية وراثتها الاجتماعية

وهناك اعتراضات قد تشور في ذهن بعض المفكرين ؛ فيرى فريق أن التاريخ لا يعرض أمامنا أمثلة حسنة للسلوك المرضي فحسب ، بل كثيراً ما يضرب أمثلة للقسوة والندم والأمانية . ولو أن المؤرخ أو المعلم أراد استبصار ذلك الجانب من التاريخ لجعل من شخصياته أبطالاً خياليين لا يدأبون وراء شيء غير الفضيلة ، وهذا في ذاته مخالف للأمانة العلمية . ويقول فريق آخر « لقد أصبحنا لا نرجع للتاريخ لنجد دروساً في الأخلاق أو مثلاً علياً للسلوك أو مواقف باهرة . نحن نفهم أن القصة الخيالية لتحقيق ذلك الفرض مفضلة على التاريخ لأنه فيها تظهر الأسباب والنتائج المتفقة مع آرائنا في العدالة » . ويرى فريق ثالث أن ليس ثمة فائدة أخلاقية نافعة من دراسة التاريخ ، فهل درستنا لتاريخ روما التي هوى بها الأنهماك في اللذات والترف منذرة لعصرنا الحاضر بالاضمحلال ؟ ويؤيد ذلك الفريق فكرته بأنه لم توجد فترتان متشابهتين من كل الوجوه في حياة الأفراد ، فكيف في حياة الشعوب . وفريق رابع يشدد بأن الماضي قد سيطر على عقولنا وتفكيرنا ، فنحن نفكر بتفكير الماضي ، ونحن منغمسون دائماً في الماضي ، مع أن ظروف الحياة قد تغيرت وتبدلت ، ولا بد من زيادة الاهتمام بالحاضر والنظر إلى المستقبل

ويرد على هذه الآراء بالقول إن التاريخ مفسر للحياة الإنسانية الماضية ، فهو موضح لنا حيتي الخير والشر . والتربية الاجتماعية لا ترمى إلا لأعداد الفرد للحياة بما فيها من مفارقات . وهي تعمل دائماً على إيجاد التوازن بين الفرائز الاجتماعية للإنسان وغيرها حب الذات . لا ننكر أننا نرى بمثلنا التاريخية إلى رفع مستوى الحياة وتطهيرها من أدرانها ، ولكننا نعمل في نفس الوقت على إعداد شخصية حقيقية لا خيالية . ومن ناحية أخرى ، كثير من الشرور التاريخية لا تستقر في أذهاننا ، فقليل من الناس من إذا ذكر اسم شكسبير أو خالد بن الوليد يذكر هاتهما الشخصية . ولا جدال في أن التاريخ ممتلئ بالشخصيات التي تتمثل فيها البطولة والمواقف الخلابه ، وإذا وجد الأبطال في القصة الخيالية ما يشقى غليلهم ، فلا يجد الدارسون ممن ارتقى بهم العمر في غير قصص التاريخ الحقيقية ما يهيج كوامن نفوسهم . وهل

هناك ما يمنع من أن نضع لصفار التلاميذ قصصاً تاريخية في شكل جذاب تتجلى فيها الحقيقة ، لهذه الأعمال أعمال حقيقية قام بها أناس حقيقيون عاشوا على وجه الأرض . ثم هل من التعليم في شيء إلا كشار من ملء عقول صغار الدارسين بمخارقات وأوهام في مرحلة من العمر هم محتاجون فيها لضبط خيالهم ، وفي وقت متأخر عقولهم بكل شيء ، وأن هذه المعلومات الملوثة بالأوهام سوف تشكل ما يتلقونه من معلومات في المستقبل ؟ وأخيراً لا نستطيع إنكار استفادة الإنسان من تجارب آباءه ، واستفادة الأمم من تجارب من سبقها ، لحياة الإنسان والأمم قصيرة ومعظم تجارب الإنسان ومعلوماته مستقى من الآخرين . ويمتاز الإنسان عن الحيوان بذكائه وقدرته الكبيرة على التعلم . وما نظم الحياة الحاضرة إلا تعديل لنظم الحياة الماضية . علي أنه في دراستنا للماضي لا ينبغي نسيان الحاضر أو إهماله ؛ فيجب دائماً ربط الماضي بالحاضر وتبين أثر الماضي في النظم الموجودة ، كما يجب ألا نكون دراسة الماضي دراسة إعجاب فحسب ، بل دراسة تفكير فيه ونقد له . ويلزم العناية بانتقاء الأمثلة التاريخية لأنها خير أراء من كثير من النظريات الأخلاقية . وكلما كان المثل مأخوذاً من الحياة كان أكثر بقاء في النفس وأعمق قراراً فيها . وليست قيمة هذه الأمثلة مقصورة على عملها على استقرار الحياة وإنما في توجيهها لها . وفائدة هذه الأمثلة ليست في البادى التي تمثلها فحسب بل في الشموخ والمواطف التي تستثيرها في نفس القارىء أو التلميذ . والتاريخ قصة لمحاولات الناس في سبيل الحياة ، ولذا فدراسته ذات قيمة وفائدة لمن يتأهب للسير في هذا السبيل .

(البقية في العدد القادم) محمد مصطفى صفوت

ظهر حديثاً

الجزء الرابع من كتاب

فيض الخاطر

للأستاذ أحمد بك أمين

تتم كل جزء من الأجزاء الأربعة ٢٥ قرشاً

عنداً أجرة البريد

ملتزمة نشره

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي بالقاهرة